ملامح التداولية في الكتب النحوية –المقتضب للمبرد–نموذجا

Pragmatics features in the Syntactic books :EL Moktadab by El Mobarad as a model

د/ عصام خروبي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

ملخص المداخلة:

تعتبر التداولية من أحدث النظريات التي تقوم على دراسة اللغة في حيز الاستعمال قصد إزالة الكثير من اللّبس والغموض الذي يحيط باللغة في تراكيبها المجرّدة، وذلك بدراستها في حالة الاستعمال بين المتكلم والمخاطب، إذ تهدف هذه المداخلة والتي جاءت بعنوان "ملامح التداولية في الكتب النحوية–المقتضب للمبرد– نموذجا"، إلى تسليط الضوء على بعض المقدّمات والملامح التداولية المهمة. وقد اشتملت الدراسة على جانبين: الجانب النظري والذي عمد إلى شرح بعض المفاهيم كمفهوم التداولية، أهميتها، ومهامها. أمّا التطبيقي فاجتهدت فيه محاولا تطبيق هذه الملامح على الكتاب.

الكلمات المفتاحية: التداولية، القصدية، إفادة المخاطب، السياق، أمن اللّبس، الالتزام الحواري.

Abstract:

Pragmatics is considered one of the latest theories that are based on the study of language in the field of use ;in order, to remove much of the confusion and ambiguity that surrounds language in its abstract structures, by studying it in the case of use between the speaker and the interlocutor, this intervention which was titled "Pragmatics features in syntactic

books", aims to shed light on some important introductions and features of pragmatics. The study included two aspects: the theoretical one which in turn was intended to explain some concepts ;such as,the concept of pragmatics, its importance, and its functions. As for the practical part, i worked hard trying to apply these features on the book.

Keywords: Pragmatics, Intentionality, Addressee's statement, Context, Disambiguity, Dialogue commitment.

مقدمة:

لقد اكتمل نضج مفهوم التداولية مع العالم الأمريكي (جون أوستن) الذي قدم نظرية إجرائية للتداولية وتحليل الخطابات، وقد وسمها بنظرية أفعال الكلام، وأكّد أن كل ملفوظ يحمل ويخفي بعدا كلاميا، وترتكز نظريته على تقديم مجموعة من الأفعال؛ (أفعال الأحكام، أفعال القرارات، أفعال التعهد، أفعال السلوك، أفعال الإيضاح) ليختتمها العالم (جون سيرل) بتقديم منهج إجرائي مكتمل يوضح عناصر تحليل الخطاب والنص بتطوير نظرية أفعال الكلام لأوستن وارتكزت على الإشارات، والافتراض السابق واستلزام الحوار، والأفعال الكلامية المتكونة من (الاختبارات، والتوجيهات، والالتزامات، والتعبيريات، والإعلانيات)[1]. وفي سنة 1938م ميز الفيلسوف الأمريكي (تشارلز موريس) بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة، وكان أول من استعمل مصطلح التداولية بدءا من تحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السيميائية من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع وهي :

-الفرع الأول النحو والتركيب: يهتم بدراسة العلاقة الشكلية بين العلامات.

[1]- عبد الحكيم سحالة، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، الملتقي الدولي الخامس (السيمياء والنص الأدبي)، 15 -17 نوفمبر 2008م، جامعة بسكرة، الجزائر، الصفحة 421.

-الفرع الثاني الدلالة: تهتم بدراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

-الفرع الثالث التداولية: تهتم بدراسة علاقة العلامات بالأشياء بمستعمليها وبمؤوليها[2].

ولقد قام كوكبة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد وهم: أوستن، سيرل، وجرايس بتطوير التداولية في العقد السابع من القرن العشرين، وكان جلّ اهتمامهم جميعا كيفية توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إرسال أو إبلاغ المتكلم رسالة إلى المتلقي لتفسيرها[3].

أ/الجانب النظري

1-مفهوم التداولية:

التداولية: "مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة. والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية"[4]

وقد اختلفت آراء العلماء فيما تدرسه التداولية، فمنهم من يرى أنها تنحصر ضمن دائرة بمستعمليها وبمؤوليها ، كما اكتسبت التداولية عددا من التعريفات بناء على مجال اهتمام الباحث نفسه، فقد يقتصر الباحث على دراسة المعنى وليس المعنى بمفهومه الدلالي البحت؛ بل المعنى في سياق التواصل. مما يسوغ معه تسمية المعنى بمعنى المتكلم، فيعرفها "بأنها دراسة المعنى التواصلي أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله، كما تعرف التداولية —من وجهة نظر المرسل- بأنها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجهه عند إنتاج الخطاب

---

[2]- ينظر: آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ولطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ودار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003م، الصفحة 29. وينظر: آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، الصفحة30.

[3]- ينظر :هاجر مدقن، التحليل التداولي، الأفق النظري والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية، الأثر مجلة الآداب واللغات –الجزائر- العدد 07-ماي- 2008، الصفحة 167.

[4]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة 01، 2005م، الصفحة 05.

بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية في ضوء عناصر السياق، بما يكفل ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده وتحقيق هدفه"[5].

ويمكن القول مما سبق أن التداولية هي: "دراسة اللغة في الاستعمال، أو في التواصل، ذلك أن صناعة المعنى تتمظهر في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي). وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما"[6].

2-أهمية التداولية:

لا شك أن الدرس التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنه؛ لأن اللغة لا تؤدي وظائفها إلا فيه، فليست وظائف مجردة. وبما أن الكلام يحدث في سياقات اجتماعية فمن المهم معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز، ومراعاة السياق ودراسته من جانب، أو تحليله في ذهن المرسل من جانب آخر، وذلك ليس بالأمر اليسير لأهميته ودقته. وأنّ التداولية هي قاعدة اللسانيات لتقاطعهما في العديد من المعطيات والمسائل كما يقول (كارناب)[7].

ومن الأسئلة التي يثيرها الباحثون –في هذا المجال– ويحاولون الإجابة عنها هي: ماذا نصنع حين نتكلم؟ وماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا بينما في مقدورنا أن نفعل؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعمل حتى يرتفع اللبس والإبهام عن الجملة؟ ماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟ أي مقياس يحدد قدرة الواقع الإنساني اللغوي؟ يبدو أن التحليلات اللغوية الشكلية (البنيوية) صادفت عدة مشكلات لعل أبرزها هي انغلاقها على النص وإلغاء كل الظروف المحيطة به، لذلك يرى (ليتش) أن في المنهج التداولي حلا لبعض هذه المشكلات، وذلك من وجهة نظر كل من المرسل والمرسل إليه، فالمرسل يبحث عن أفضل طريقة لينتج خطابا يؤثر به في المرسل إليه، كما أن المرسل إليه يبحث عن أفضل كيفية

---

[5]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2004م، الصفحة 22.

[6]– ينظر: هاجر مدقن، التحليل التداولي، الأفق والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية،الصفحة 88.

[7]– ينظر: المرجع السابق، الصفحة 23.

للوصول إلى مقاصد المرسل، كما يريدها عند إنتاج خطابه لحظة التلفظ. وهذه الإجراءات لا تتبلور عبر منظومة خوارزمية تجريدية —كما هو الحال في النحو- بل عبر تقدير ذهني عام ومحتمل وفقا لعناصر السياق.[8]

3-مهام التداولية:

ذكر مسعود صحراوي مهام التداولية في كتابه التداولية عند العرب ولخصها في النقاط التالية:

-"دراسة 'استعمال اللغة'، التي لا تدرس 'البنية اللغوية' ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها 'كلاما محدّدا' صادرا من 'متكلم محدد'، وموّجها إلى 'مخاطب محدد'، ب 'لفظ محدّد'، في 'مقام تواصلي محدّد'، لتحقيق 'غرض تواصلي محدّد'.

-شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملف.

-بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر. -شرح أسباب المعالجة اللسانية البنيوية الصرف في معالجة الملفوظات.

وعليه، فإن بعض الدارسين يعّولون على التداولية في تحقيق مجموعة من الرهانات التي تعبر عنها الأسئلة الآتية:

-كيف نصنف الاستدلالات في عملية التواصل، علما بأن الاستدلالات التداولية غير معقلنة، وربما كانت غير مقنعة في كثير من الأحيان؟

-ما هو نموذج التواصل الأمثل؟ (أهو الترميز أم الاستدلال؟)

-ماهي العلاقة بين الأنشطة الإنسانية الآتية: اللغة والتواصل والإدراك؟ وما هي العلاقة بين الفروع المعرفية المشتغلة بهذه الأنشطة (أي علم اللغة وعلم التواصل وعلم النفس المعرفي)؟"[9]

---

[8]- ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986م، الصفحة 07.

[9]- مسعود صحراوي، التداولية عند العرب، الصفحة 28.

ب/الجانب التطبيقي

1-نبذة مختصرة عن حياة المبرد:

وقبل أن نبدأ في الجانب التطبيقي، أذكر فيما يأتي نبذة موجزة عن حياة المبرد.

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليم بن سعد بن عبد الله بن

يزيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم -وهو ثمالة- بن أحجن بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث. ولد المبرد بالبصرة يوم الاثنين سنة عشر ومئتين (210هـ) وقيل سنة سبع ومئتين (207هـ). وقد لُقب بالمبرد قيل: لحسن وجهه، وقيل: لدقته وحسن جوابه، ونسبه بعضهم إلى البردة تهكّما، وذلك غيرة وحسدًا. نشأ المبرد في البصرة، وتلقى العلم فيها على عدد كبير من أعلام عصره في اللغة والأدب والنحو منهم: "أبو صالح بن إسحاق الجرمي"، وكان فقيهًا عالمًا بالنحو واللغة، و"أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني" الذي وصفه "المبرد" بأنه كان أعلم الناس بالنحو بعد "سيبويه" وغيرهم، كما كان من كبار علماء عصره في اللغة والشعر والنحو.

قال عبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب، وأبو بكر بن أبي الأزهر: كان أبو العباس محمد بن يزيد من العلم وغزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكيّة المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الخط، وصحّة القريحة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق...على ما ليس عليه أحد ممّن تقدّمه أو تأخّر عنه.

وتوفي المبرد يوم الإثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة، وقيل ذي القعدة، سنة ست وثمانين ومئتين (286هـ)، وقيل خمس وثمانين ومئتين (285هـ) ببغداد، ودفن في مقابر

باب الكوفة[10].

[10]- ينظر: محمد بن الحسين بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (ت: 379هـ)، طبقات النحويين واللغويين. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة 03، دار المعارف، الصفحة100. وينظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الأربلي (ت: 671هـ)، وفيات

2-ظاهرة التداولية في كتاب المقتضب:

إذا كانت التداولية فرع من فروع علم اللغة وهي من أحدث مجالات الدراسات اللغوية وقد ظهر مصطلح التداولية على الساحة اللغوية لأول مرة في ثلاثينيات القرن العشرين، والتداولية منهج غنّي بالكثير من القضايا والمفاهيم التي تحتاج إلى الدراسة العميقة، وقد احتوى المنهج التداولي على آليات حديثة في البحث والدراسة. و لعّل أهم ما يميز الدرس اللغوي العربي القديم أنّه يقوم على دراسة اللغة أثناء الاستعمال منذ بدايته، ويظهر من خلال ذلك قيمة الاستعمال وما تتداوله العرب في اللغة وأهميته في تحديد أساليبها وطرق آدائها وأنّ ما نطقت به العرب هو الأصل في كل ظاهرة. يقول ابن جني: " واعلم أنك إذا أتاك القياس إلى شيئ ما ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ماهم عليه فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته فأنت فيه مخير: تستعمل أيهما شئت..."[11]. ويقول محمد سويرتي: "إن النحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين قد مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوروبيا. فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلامات المتنوعة (الأيقونات والرموز التصويرية والمعمارية والتشكيلية واللغوية ...). فإذا كان اللسانيون التداوليون العرب، قد درسوا الدلالات التضمينية والالتزامية التي عرفت عند اللسانيين التداوليين الغربيين بالدلالات المفترضة والمضمرة، المتفرعة عما عرف عند علمائنا بدلالة المطابقة التي عرفت

الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت- الجزء 04، الصفحة 318. وينظر: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: 646هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة 01، (1406هـ)-(1983م)، دار الفكر العربي-القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية-بيروت، الجزء 03، الصفحة 247. وينظر: عبد الرحمان بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية-لبنان، صيدا- الجزء 01، الصفحة 269. وينظر: محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. تحقيق: أبي محمد عبد الرحمان بن محمد بن اسماعيل، الطبعة 01 (1426هـ-2005م)، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، الصفحة 92.

[11]- أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: 392هـ)، الخصائص، الطبعة 04، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء 01، الصفحة 126.

عند العلماء الغربيين بالدلالة المطروحة. فقد أغفل بعض اللغويين العرب الدلالات البلاغية التداولية، ولم يلامسوها إلا لماما. فعلى نظرية البلاغة ونظرية النحو والمنطق النقدي تنهض التداولية"[12].

وخلاصة القول إنّ العلماء العرب من نحويين، وبلاغيين، وأصوليين تصدّوا لدراسة ظواهر لغوية تؤاسر الظواهر التي وصفت في إطار فلسفة اللغة العادية، وخاصة ظاهرة الأفعال الكلامية والاستلزام الحواري.

وعليه ستكون دراستنا في البعد التداولي للمقتضب قصد تأكيد السبق الذي قدّمه النحاة العرب لمعرفة أصول هذا الاتجاه (التداولية)، مستعينا بكل ما يؤكد لنا من آراء وأمثلة تخدم موضوع الدراسة.

إنّ التداولية باختصار هي استعمال اللغة بوجود متحدث (مقصدية)، ومخاطب (عنده إفادة)، وسياق محيط بالكلام، وتأثير هذه العناصر في الكلام. ولقد كانت هذه الظواهر اللغوية موضع اهتمام المبرد في كتابه المقتضب، وكان في ذهنه: إفادة المخاطب وقصد المتكلم، السياق (الالتزام الحواري) وأثرها على التركيب المستعمل.

1-إفادة المخاطب والقصدية:

تحدث المبرد عن العلاقة بين المتكلم والمخاطب على أنّهما من أهم العناصر التي تلعب دورا مهما في إثراء التوجيه الدلالي، ولقد أشار إليها مرارا وتكرارا 'فالمتكلم على سبيل المثال'

له دور مهم في التوجيه الدلالي من خلال سكوته، إرادته، حالاته النفسية ومكنونها.

أ-سكوت المتكلم: أما سكوت المتكلم وأهمية هذا السكوت فقد كان له الأثر الدلالي وأبانه المبرد في عدة مواضع. ولأهمية سكوت المتكلم ذكر بعض النحاة في تعريف الجملة المفيدة فقالوا بأنه: "القول المفيد بالقصد، والمراد بالمفيد: ما دلّ على معنى يحسن السكوت عليه"[13].

---

[12]-محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 03، الصفحة 30.

[13]- عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد جمال الدين ابن هشام (ت: 761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، الطبعة 06، (1985م)، دار الفكر – دمشق- الصفحة 490.

وبتعبير المبرد المختصر أنّ الإفادة هي: "جملة يحسن عليها السكوت وتجب بها الفائدة للمخاطب"[14]. أي أنّ الإفادة مرتبطة بحسن السكوت، فالمتكلم يسكت لأنّه أوصل المعنى الذي يريده، والمخاطب يسكت لأنّه حصل عنده فهم المعنى وحصّل الفائدة من الجملة.

يقول المبرد في مبحث باب الفاعل: "وهو رفع وذلك قولك قام عبد الله وجلس زيد وإنّما كان الفاعل رفعا لأنه هو والفعل جملة يحسن عليها السكوت وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت قام زيد فهو بمنزلة قولك القائم زيد والمفعول به نصب إذا ذكرت من فعل به، وذلك لأنه تعدى إليه فعل الفاعل وإنّما كان الفاعل رفعا والمفعول به نصبا ليعرف الفاعل من المفعول به مع العلة التي ذكرت لك"[15].

ب–إرادة المتكلم وقصده: ويبرز المبرد جانبا آخر من جوانب اهتمامه بالمتكلّم، فقد حرص على إبراز إرادة المتكلم في اختيار التراكيب النحوية والصيغ الصرفية الملائمة للمقام الذي يتحدث فيه، ونضرب هنا أمثلة توضح ذلك.

قال المبرد: "اعلم أنّك إذا قلت جاءني عبد الله وقصد إلى زيد فخفت أن يعرف السامع اثنين أو جماعة اسم كل واحد منهم عبد الله أو زيد قلت الطّويل أو العاقل أو الرّاكب أو ما أشبه ذلك من الصّفات لتفصل بين من تعني وبين من خفت أن يلتبس به كأنّك قلت جاءني زيد المعروف بالركوب أو المعروف بالطول وكذلك جاءني زيد بن عمرو وزيد النازل موضع كذا فإن لم ترد هذا وأردت الإخبار عن الحال الّتي وقع فيها مجيئه قلت جاءني زيد راكبا أو ماشيا فجئت بعده بنكرة لا تكون نعتا له لأنّه معرفةوذلك أنّك لم ترد جاءني زيد المعروف بالركوب والمشي فيكون تحلية بما قد عرف وإنّما أردت مجيئه وقع في هذه الحال وكذلك رأيت عبد الله جالسا ومررت بعبد الله ضاحكا خبرت أن رؤيتك إياّه ومرورك به وقعا في هذه الحال منه"[16].

ج–حالاته النّفسية ومكنونها: ومما يثري هذا التوجيه الدلالي ويؤثر فيه ويتعلق بالمتكلم حالته النفسية وما تنطوي عليه نفسه من المعاني، فالنحويين يقولون لا يجوز الابتداء بنكرة كما هو معروف بل يجب الابتداء بالمعرفة أو ما

---

[14]– محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس المبرد (ت: 285هـ)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب –بيروت– الجزء 01، الصفحة 08.

[15]– المرجع نفسه، الجزء 01، الصفحة 08.

[16]– المبرد، المقتضب، الجزء 04، الصفحة 166.

قارب المعرفة، إذ يقول المبرد: "ألا ترى أنّك لو قلت رجل قائم أو رجل ظريف لم تفد السّامع شيئا"[17]. ولعلّ هذا ما أشار إليه محمود شاكر عند إيضاحه للعلاقة بين المتكلم وكلامه إذ يقول: "أن يجعل نظم الكلام دالاّ على صور قائمة في نفس صاحبها"[18]. ويستعمل المبرد كلمة 'إذا أردت' في بيان الحالة النفسية للمتكلم والمخاطب، فالمتكلم هو الذي يرفع وينصب ويجر ومثال ذلك: "زيد أبوك قائم تجعل الأب نعتا لزيد أو بدلا منه، وكذلك أخوك إذا أردت النّسب كان كالأب، وإن أردت الصداقة دخل معنى الفعل وصلح النصب، وإن جعلت الأخ نعتا أو بدلا كان الرّفع في قائم لا غير..."[19].

ومما لاشك فيه أنه لا يستغني طرف عن الطرف الآخر فمن ذلك: "قام زيد والابتداء وخبره وما دخل عليه نحو كان و إن وأفعال الشّك والعلم والمجازة، فالابتداء نحو قولك زيد فإذا ذكرته فإنّما تذكره للسامع ليتوقع ما تخبره به عنه فإذا قلت منطلق أو ما أشبهه صحّ معنى الكلام وكانت الفائدة للسامع في الخبر لأنّه قد كان يعرف زيدا كما تعرفه ولولا ذلك لم تقل له زيد ولكنت قائلا له رجل يقال له زيد فلّما كان يعرف زيدا ويجهل ما تخبره به عنه أفدته الخبر فصح الكلام لأن اللّفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئا وإذا قرنتها بما يصلح حدث معنى واستغنى الكلام، لهما رفع المبتدأ فالابتداء ومعنى الابتداء التّنبيه والتعرية عن العوامل غيره وهو أول الكلام وإنّما يدخل الجار والناصب والرافع سوى الابتداء على المبتدأ"[20].

2-اعتبار المبرد للسياق:

لقد حدّد ابن القيم أيضا عددا من وظائف السياق في بيان الدلالة من حيث إنه من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلم، فقال: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة. ويقول: وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط

---

[17]- المرجع نفسه، الجزء 04، الصفحة 127.

[18]- ينظر: محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات محمود شاكر، جمعها وقرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، الطبعة 01، (2003م)، مكتبة الخانجي، القاهرة -جمهورية مصر العربية- الجزء 02، الصفحة 1184.

[19]- المبرد، المقتضب، الجزء 04، الصفحة 309.

[20]- المبرد، المقتضب، الجزء 04، الصفحة 127.

في مناظراته. ويضرب مثلا على أهمية السياق بالآية الكريمة: ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ الدخان49. يقول ابن القيم: انظر كيف تجد سياقه يدل على أنّه الذليل الحقير"[21].

ولقد اعتمد المبرد على نصوص تستلزم بالضرورة وجود السياق فيها، ومن أمثلة النصوص الواضحة التي يرسم فيها المبرد سياق الحال بنفسه نذكر منها:

أ-" مررت برجل زيد لما قلت مررت برجل، أردت أن تبين من هو فكأنّك قلت هو زيد ... ومما يحذف لعلم المخاطب بما يقصد له قولهم لا عليك إنّما يريدون لا بأس عليك وقولهم ليس إلاّ وليس غير إنّما يريدون ليس إلاّ ذلك"[22].

ب-"ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد، فكّبروا لقلت: الهلال ورب الكعبة، أي: أبصروا الهلال.

ج-" رأيت رجلا يسدّد سهما قبل القرطاس، فقلت: القرطاس والله ، أي: يصيب القرطاس. وإذا سمعت وقع السّهم في القرطاس، قلت: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس"[23].

ونجد في نصوص كثيرة يعتني المبرد بالسياق، فيتخيل السياق ويجري حوارا داخليا بين الكلمات في الجمل على سبيل الالتزام الحواري ومن هذه الأمثلة نذكر: "والتأنيث الثاني، والتذكير نحو قولك: يوم، وليلة، وبلد، ودار ومنزل، فليس في هذا أكثر من اللفظ فلو قلت: قصر ليلتك، وعمر دارك لجاز، لأن الدار والمنزل شيئ واحد ليس في الدّار حقيقة تصرفها عن ذلك، وكذلك البلد والبلدة، قال الله عّزوجل:﴿**فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ وقال﴿ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** ﴾ وقال في تأنيث الجمع: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ**﴾؛ لأن الإخبار ليس عن واحد فإن قال: قام جواريك صلح، ولو قال: قام جاريتك لم يجز، وكذلك لا يجوز: قام مسلماتك، وجاراتك ولكن قامت، لأن هذا جمع حقيقي لا يغير الواحد عن بنائه... "[24].

---

[21]- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قّيم الجوزية، (ت: 751هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد –مكة المكرمة- الطبعة 01، الجزء 01، الصفحة 106.

[22]- المبرد، المقتضب، الجزء 04، الصفحة 129.

[23]- ينظر: المرجع نفسه، الجزء 02، الصفحة 318، والجزء 04، الصفحة 129.

[24]- المرجع نفسه، الجزء 03، الصفحة 349.

3- حماية المخاطب من اللبس:

جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة تحديد لمعنى الالتباس وهو: "مصدر التبس ب، التبس على، عدم التمييز بين شيئين مختلفين واعتبارهما شيئا واحدا، عدم الوضوح وإدراك المضمون، اختلاط الأفكار بدون رابط منطقي بينهما. أما الالتباس الدّلاّلي فهو: "احتمال الكلام لأكثر من معنى، وقد يكون ذلك نتيجة للتعقيد المعنوي. وأمّا الالتباس النّحويّ عبارة تتحمل أكثر من معنى بسبب تركيبها النّحويّ"[25].

وسأذكر بعض النماذج التي أبانت عن اهتمام المبرد بهذا المبحث في كتابه ومنها قوله: "اعلم أنّك إذا قلت جاءني عبد الله وقصد إلى زيد فخفت أن يعرف السّامع اثنين أو جماعة اسم كل واحد منهم عبد الله أو زيد قلت الطّويل أو العاقل أو الرّاكب أو ما أشبه ذلك من الصّفات لتفصل بين من تعني وبين من خفت أن يلتبس به كأنّك قلت جاءني زيد المعروف بالركوب أو المعروف بالطول وكذلك جاءني زيد بن عمرو وزيد النّازل موضع كذا، فإن لم ترد هذا وأردت الإخبار عن الحال الّتي وقع فيها مجيئه قلت جاءني زيد راكبا أو ماشيا فجئت بعده بنكرة لا تكون نعتا له لأنّه معرفة وذلك أنّك لم ترد جاءني زيد المعروف بالركوب والمشي فيكون تحلية بما قد عرف وإنّما أردت مجيئه وقع في هذه الحال وكذلك رأيت عبد الله ضاحكا خبرت أن رؤيتك إيّاه ومرورك به وقعا في هذه الحال منه وتقول زيد في الدار قائما فتنصب قائما بمعنى الفعل الّذي وقع في الدّار لأن المعنى استقر عبد الله في الدّار ولذلك انتصبت الظروف ألا ترى أنّك تقول زيد خلفك وزيد دونك فتنصب الدون والخلف بفعل زيد كأنّك تقول استقر زيد خلفك وثبت دونك ونفسر هذا في باب الظروف إن شاء الله"[26].

وقوله أيضا: "أعطيت زيدا درهما، وكسوت زيدا ثوبا، وما أشبهه لأنّك إن شئت قلت: كسوت زيدا، وأعطيت زيدا، ولم تذكر المفعول الثاني فإذا قلت: أعطيت زيدا درهما، فقال لك: أخبر عن (زيد) قلت: المعطيه أنا درهما زيد

---

[25]- أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: 1424هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة 01، الجزء 03، الصفحة 1990.

[26]- المبرد، المقتضب، الجزء 04، الصفحة 166.

فإن قال لك: أخبر عن (الدرهم) قلت: المعطى أنا زيدا إيّاه درهم، فهذا أحسن الإخبار أن تجعل ضمير الدّرهم في موضعه، لئلاّ يدخل الكلام لبس وإن لم يكن ذلك في الدّرهم ..."[27].

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث يمكن القول أنّ الخطاب قائم على التواصل بين المتكلم والمتلقي وعملية تحليله هي رصد لهذا التواصل بغرض استنتاج الهدف الذي يطمح إليه منتج النص من الكلام وهو ما يؤثر في المخاطب ويمكّنه من الإفادة والاستفادة منه. كما يقوم المنهج التداولي على دراسة استخدام منتج النص للعلامات اللغوية وفق ما يريد التعبير عنه، مع معالجة شروط التواصل بين طرفي الخطاب القائم على الفهم والتأويل، إذ يعتبر من المناهج الضرورية في تحليل الخطاب لأنه يهتم بمقاصد المتكلم وإفادة المخاطب. كما تعتمد الدراسة التداولية أيضا على دراسة السياق الذي ينتج فيه الخطاب وجمعه بعنصريه الأساسيين للوصول إلى هدف التواصل وهو التأثير.

وأخيرا، فإنّ البحث يرى أناّ لا نجاوز الحقيقة إن قلنا إنّ الأصالة في هذا الطرح الجديد 'التداولية' إنّما هي للعلماء اللغويين العرب –والمبرد واحد منهم– ذلك أنّ جذور قواعد التداولية وسياق الحال ممتدة وبعمق في تاريخ الدرس اللغوي العربي بل واضحة في جهود المبرد في كتابه المقتضب موضع البحث.

[27]– المرجع نفسه، الجزء 03، الصفحة 93.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر والمراجع:

1- أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: 392هـ)، الخصائص، الطبعة 04، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

2- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر برأيوب ابن قيّم الجوزية، (ت: 751هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد –مكة المكرمة- الطبعة 01.

3- أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: 1424هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة 01.

4– آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل.

5- آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ولطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ودار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003م.

6- جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: 646هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة 01، (1406هـ)-(1983م)، دار الفكر العربي-القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت. -عبد الرحمان بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية-لبنان، صيدا-.

7- عبد الحكيم سحالة، التداولية امتداد شرعي للسيميائية، الملتقي الدولي الخامس (السيمياء والنص الأدبي)، 15- 17 نوفمبر 2008م، جامعة بسكرة، الجزائر.

8- عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد جمال الدين ابن هشام (ت: 761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، الطبعة 06، (1985م)، دار الفكر – دمشق- .

9- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2004م.

10- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية.

11- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986م.

12- محمد بن الحسين بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (ت: 379هـ)، طبقات النحويين واللغويين. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة 03، دار المعارف.

13-محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس المبرد (ت: 285هـ)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب –بيروت-.

14- محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات محمود شاكر، جمعها وقرأها وقدّم لها: عادل سليمان جمال، الطبعة 01، (2003م)، مكتبة الخانجي، القاهرة –جمهورية مصر العربية-.

15- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة 01، 2005م.

16- هاجر مدقن، التحليل التداولي، الأفق النظري والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية، الأثر مجلة الآداب واللغات –الجزائر- العدد 07-ماي- 2008.

17-أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الأربلي (ت: 671هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت- .

18-محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. تحقيق: أبي محمد عبد الرحمان بن محمد بن اسماعيل، الطبعة 01 (1426هـ-2005م)، مكتبة إحياء التراث الإسلامي.

19-محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد 03.